قصص
القرآن الكريم
(1)

إعداد

عبد العزيز سيد هاشم

ياسر علي نور

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

ما أحلى القرآن الكريم ! وما أحسن قصصه ! قال الله تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ) [يوسف : ٣] .

ومن يقرأ القرآن الكريم يجد فيه آيات كثيرة تتناول قصصاً متنوعة ومفيدة ، منها قصص الأمم السابقة مثل : قوم نوح ، وعاد ، وثمود ... وغيرهم ، ومنها قصص الأنبياء والرسل الذين دعوا إلى عبادة الله الواحد الأحد ، ومنها قصص لأناس ليسوا بأنبياء ، لكنهم آمنوا بالله ودعوا قومهم لعبادته ، ووقفوا مع الحق أمام الباطل .

وموضوعات قصص القرآن متعددة ، والمسلم العاقل الرشيد هو الذي يتعلم من القصص القرآني العبرة والعظة ، فيزداد إيمانه بالله سبحانه ، ويثق في أن الإسلام هو دين الله الذي يُصْلِح الله به الكون .

قلنبدأ أيها الأحبة بقراءة قصص القرآن الكريم ، كما تحكيها لنا آيات القرآن ، يقول الله تعالى : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [يوسف : ١١١] .

قصة آدم

قبل أن يخلق الله آدم من الطين ، وينفخ فيه الروح ، قال لملائكته : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) ، فأرادت الملائكة أن تعرف الحكمة من ذلك فتساءلت : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) ؟ فقال تعالى للملائكة : (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ) .

وبعد أن خلق الله تعالى آدم ، وعلَّمه أسماء كل شيء ، سأل الملائكة عن أسماء هذه الأشياء ، فلم تعرفها الملائكة ، وقالت : (سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) ، فأمر الله آدم أن يخبرهم بأسماء تلك الأشياء ، فأخبرهم آدم بها ، فعرفت الملائكة مكانة هذا المخلوق الجديد

. وأمر الله الملائكة أن تسجد لآدم إكراماً له ، فسجدت له الملائكة ، وكان معهم إبليس ، فرفض السجود وتكبر ، وقال : (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) ، فطرده الله من رحمته .

ثم خلق الله حواء ؛ خلقها من ضِلَع آدم لتعيش معه وتؤنسه ، وأمرهما أن يدخلا الجنة ، ويأكلا من ثمارها ، ويشربا من أنهارها ، وأن يتمتعا بما فيها من نعيم . وأراد الله تعالى أن يمتحن آدم وحواء ، فأمرهما ألا يقتربا من شجرة واحدة في الجنة ، وألا يأكلا منها ، لكن الشيطان اللعين أراد لهما معصية الله كما فعل هو وامتنع عن السجود ، فأخذ يوسوس لهما ويزين لهما الأكل من الشجرة ، ويقول لهما : إن تلك الشجرة ستجعلكما تعيشان ولا تموتان أبداً ، وأقسم لهما بذلك ، وحلف كذباً وبهتاناً ، فاستجاب آدم وحواء للشيطان ، ونسيا تحذير الله لهما ، واقتربا من الشجرة ، وأكلا من ثمارها .

ولما أكلا من تلك الشجرة انكشفت عورتاهما ، فأخذا يغطيانها بورق الجنة ، وقد أحسَّا بالخجل والحياء من الله سبحانه ؛ لأنهما عصياه وأكلا من الشجرة ، فناداهما الله سبحانه ، وقال لهما : (أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ) ؟ فاعترف آدم وحواء بذنبهما وخطئهما ، وتوجها إلى الله سبحانه يطلبان منه المغفرة والصفح والعفو عنهما ، وقالا في خضوع وتذلل : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

فقبل الله سبحانه اعتذارهما وتاب عليهما ، ثم أمرهما أن يهبطا إلى الأرض ويسكنا فيها ، ويأخذا حذرهما من الشيطان ؛ لأنه عدو لهما .

خرج آدم وحواء من الجنة ، وهبطا إلى الأرض ليواجها الحياة ومتاعبها . وبدأ آدم يمارس مهمته التي خلقه الله من أجلها ، وهي الخلافة في الأرض لعمارتها وعبادة الله تعالى .

وأنجب آدم وحواء ذرية كثيرة ، فكبر الأبناء ، وبدأ آدم يعلِّمهم أوامر الله ونواهيه ، ويحذرهم من الشيطان الرجيم .

قصة ابني آدم

ظل يفكر طويلاً ، لم تَذُقْ عيناه طعم النوم ؛ لأن الشيطان يوسوس إليه .. لماذا فضله الله عليك ؟ أنت أفضل منه . واشتعل قلبه بنار الحقد والغيرة ، فأصرَّ على أن يتخلص منه ويقتله .

إنه قابيل ابن آدم الأكبر ، الذي لم يقبل حكم الله حينما أشار أبوه آدم عليه وعلى أخيه بأن يُقَدِّم كل منهما قرباناً إلى الله ، فنزلت نار من السماء ، فأكلت قربان الابن الأصغر ، دلالة على قبول الله سبحانه لقربانه ، وتركت قربان الابن الأكبر ؛ فاشتد غيظه ، واشتعل قلبه بنار الغيرة والعداوة .

قال تعالى : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ) [المائدة : ٢٧] .

وانتهز الشيطان الفرصة ، فأخذ يزيِّن له فكرة التخلص من أخيه ، حتى توجه إليه وهدده قائلاً : لأقتلنَّك .

وكان أخوه هابيل قويًّا لكنه لم يقابل الإساءة بمثلها ، وإنما ردَّ عليه بقوله : (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) .

لكن هذا الرد الجميل ، وهذا العفو والتسامح ، لم يؤثرا في أخيه بل ازداد حقده ، وأصر على ارتكاب تلك الجريمة البشعة . (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [المائدة : ٣٠] .

فلما قتل أخاه ندم ندماً شديداً ، وظل في حيرة ؛ فماذا يفعل بجثة أخيه ؟

رأى غراباً يحفر في الأرض حفرة صغيرة ، ثم دفن فيها جثة غراب ميت . عندئذٍ دفن قابيل أخاه وهو حزين على ما فعل .

وهكذا نجد أن الحقد والطمع جعلا ابن آدم يرتكب أول جريمة قتل في تاريخ البشرية . فالمؤمن لا يقاتل أخاه ظلماً وعدواناً ، ولا يرتكب الكبائر التي تغضب الله سبحانه ؛ لأنه يعلم أن الله أعد له خيراً من الدنيا وما فيها ، أعد له الجنة ونعيمها ، ومن يعترض على حكم الله وقضائه فإنه يضل ويشقى ، ويخسر في الدنيا والآخرة .

قصة سفينة نوح

تلبدت السماء بالغيوم ، وتساقط المطر الغزير كأنه سيل متدفق ، وانشقت الأرض ، وتفجر الماء من باطنها كفيضان كاسح لا يصده شيء ، واندفعت سيول الماء بسرعة مخيفة تجرف كل ما في

طريقها ، وتقتلع الأشجار والبيوت وكل شيء . وارتفعت الأصوات المذعورة تستغيث : النجدة .. النجدة .. الكل يحاول النجاة بنفسه ، لكن لا مفر من عذاب الله ! وما هي إلا ساعات قلائل حتى غطى الماء كل شيء ، فخمدت الأنفاس وسكنت صرخات الاستغاثة .

وقصة أولئك المعذبين ، ترجع إلى زمن بعيد ؛ حيث كان يعيش على أرضهم خمسة رجال صالحين ، هم : وَدٌّ ، وسُواع ، ويَغُوث ، ويَعُوق ، ونَسْر . وكان الناس يحبونهم حبًّا شديداً ، ويهتدون بهديهم . ولما مات أولئك الصالحون ، حزن الناس لفراقهم حزناً شديداً ، واقترح أحدهم أن يصنعوا لهم تماثيل تذكر الناس بهم ، فأعجبتهم الفكرة ونفَّذوها .

ومرت السنون ، ومات الأجداد والآباء ، وجاء جيل وراءه جيل ، ونسى الناس أن تلك التماثيل مجرد ذكرى للصالحين ، وأغواهم الشيطان ، فجعلهم يتقربون إليها تبركاً بأصحابها ، وشيئاً فشيئاً عبدوها ، وتركوا عبادة الله الواحد القهار .

عندئذ أرسل الله سبحانه إليهم نبيًّا منهم هو نوح عليه السلام ؛ ليخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، وحذَّر نوح قومه ، فقال لهم : (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) .

واستمر نوح يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ليرجعوا عن كفرهم ، ويتركوا عبادة الأصنام ، ويعبدوا الله وحده لا يشركون به شيئاً .

أخذ نوح يقدم لهم الأدلة على صدق دعوته ، ويلفت أنظارهم إلى ما في الكون من دلائل قدرة الله ووحدانيته ، فيقول لهم : (مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ، أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ، وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ، وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً ، لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً) .

فاستجاب له عدد قليل من أصحاب العقول الراجحة ، وظل باقي قومه على ضلالهم وشركهم بالله ، وكذبوه وقالوا : (مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) . ودعوا الناس إلى التمسك بالشرك والضلال ، وقالوا : (لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً) .

وصبر نوح ، واستمر يدعو قومه إلى الله ليلاً ونهاراً .. سرًّا وعلانية ، وكان يحببهم في طاعة الله ويرغبهم فيما عنده من الخير الوفير ، فقال لهم : (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً) .

فقالوا : (مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) ، وهددوه هو والذين آمنوا معه بالقتل فقالوا : (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) ، ولم يخشَ نوح والذين آمنوا معه من تهديدات الكافرين ، بل زادهم إيماناً . واستمر نوح يدعوهم تسعمائة وخمسين عاماً . وظل يحذرهم من عذاب الله ، فلم يؤمن به إلا جماعة قليلة ، أما أكثرهم فقد ضاقوا به وبدعوته ، وقالوا : (يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .

فحزن نوح من جرأتهم على الله ، وتعجب من استعجالهم العذاب وظل يدعوهم ، حتى جاءه الوحي : (أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) .

ورضي نوح بقضاء الله وقدره ، وأيقن أن مشيئته نافذة ، فرفع يديه إلى السماء ، ودعا ربه قائلاً : (رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً) ، فاستجاب الله سبحانه دعاء نبيه ، وأمره أن يصنع سفينة كبيرة ، ثم يجمع فيها من كل شيء زوجين اثنين : من الطيور والحيوانات ومن غيرها ، ثم يركب السفينة هو والذين آمنوا معه ، فاستجاب نوح لأمر ربه ، وبدأ هو والذين آمنوا معه يعملون في صنع السفينة . وكلما مرَّ عليهم الكافرون استهزءوا بهم وسخروا منهم ، وتعالت ضحكاتهم من أولئك الذين يصنعون سفينة على أرض ليس بها بحر ولا نهر .

فيجيبهم نوح : (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) . ولما حانت ساعة العذاب ، وضع نوح في السفينة كل الأزواج التي جمعها ، ونادى أهله ومن آمن به ، وقال : (ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) ، وصدر أمر الله إلى السماء والأرض أن تُخرجا ماءهما ، فنزلت الأمطار من السماء ، وتفجَّر الماء من الأرض . وارتفع الماء رويداً رويداً حتى تعالتْ أصوات المستغيثين .

وكان ابن نوح كافراً لم يؤمن بالله ، ولم يستجب لأبيه ، ورآه نوح يخوض في الماء مسرعاً ، يبحث عن شيء يحتمي به ، فناداه : (يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ) .

سمع الابن دعوة أبيه ، لكنه تمسك بكفره وشركه ، وقال : (سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ) ، وواصل ابتعاده ، فبين نوح لابنه العاق حقيقة ما لا يعلم ، فقال له : (لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ) . وهاجت الأمواج العالية فأخذت ذلك الابن فأهلكته .

ودعا نوح ربَّه : (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) ، وجاءه الجواب سريعاً : (يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) ، فرضي نوح بقضاء الله ، وقال معتذراً : (رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

وهكذا تطهرت الأرض من المشركين والملحدين ، وصدر الأمر الإلهي إلى السماء والأرض : (يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي) ، وقل الماء تدريجيًّا حتى رَسَتِ السفينة على الأرض ، فقال الله سبحانه : (يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ) .

وهكذا نجَّى الله نوحاً ومن معه من المؤمنين ، وأغرق الكافرين ، وهذا هو العدل الإلهي الذي لا يظلم أحداً ، فمصير الكافر إلى النار وإن كان ابناً لنبي ، والنجاة لا تكون إلا لكل مؤمن بالله .

فالإيمان هو الأساس الذي يضمن للمرء الأمن والسعادة في الدنيا والآخرة .

قصة هود

أنعم الله تعالى على قوم عاد بنعم كثيرة ، ورزقهم بالأموال والأولاد والعلم والقوة ، إلا أنهم استعملوا نعم الله في معصيته ، فطغوا وكفروا ، وبطشوا واعتدوا وكانوا يقولون : من أشد منَّا قوة ؟ ونسوا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة .

وسكن قوم عاد في المباني العالية الحصينة ، وحسبوا أنهم يخلدون فيها ، متجاهلين أن كل بناء لا بد أن يزول .

وزاد فساد عقولهم ومعتقداتهم ، فأنكروا البعث والحساب ، وقالوا : (مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ) . وزادوا فوق ذلك أنهم اتخذوا من دون الله أصناماً يعبدونها ويتقربون إليها ، وهي لا تملك لهم ضرًّا ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة .

ولأن سنة الله في خلقه اقتضتْ ألا يعذب قوماً حتى يبعث إليهم رسولاً ، فقد اختار الله من قوم عاد واحداً منهم ، هو نبيه هود عليه السلام ، وأرسله إليهم بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله ، وإلى طريقه المستقيم .

فتوجه هود إلى قومه ، وقال لهم : (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) ، وذكَّرهم ببعض نعم الله عليهم ، ونصحهم ، ولكنهم كذبوه وقالوا له : (إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) .

ولكن هوداً لهم قال لهم في سماحة : (يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ) . وبين لهم أنه لا يريد منهم أجراً ولا مالاً ، وإنما يبغي هدايتهم وإخراجهم من الضلال إلى الإيمان ومن الظلام إلى النور ، فقالوا له : يا هود إنك لم تأتنا بمعجزة خارقة تصدق قولك ، ولن نترك عبادة آلهتنا بمجرد كلامك ودعوتك ، بل إننا لن نؤمن لك ، وما نظن إلا أنك مجنون .

وحاول هود مع قومه مرات عديدة ، وأخذ يذكِّرهم بنعم الله عليهم ، لكنهم أصروا على كفرهم ، وقالوا : لن نخالف آباءنا فإن كنت صادقاً فأْتنا بالعذاب والنكال ، فإنا لن نؤمن بك ولن نتبعك .

وقالوا : (أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) ، فأجابهم هود إجابة حاسمة ، وقال لهم : (قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) .

وبدأت مقدمات العقاب الإلهي حيث امتنع سقوط المطر ، فمات الزرع وجفَّت الأرض ، فأصابهم قحط ، وعاشوا في مجاعات وآلام لا يجدون لها حلاً .

وخرجوا يستغيثون ، ويطلبون نزول المطر ، فنظروا في السماء ، فرأوا سحابة سوداء ، فظنوا أنها قد أتتهم بالمطر فاطمأنوا ، وظنوا أن عذابهم سينتهي قريباً ، ولكن فرحتهم سرعان ما تبددت وذابت ، فلم تكن سحابة مطر ، وإنما كانت ريحاً ، قال تعالى : (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا) [الأحقاف : ٢٤ – ٢٥] .

واستمرت ريح العذاب سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فدمرت فيها كل شيء ، ولم تترك من المشركين أحداً ، (فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ) ، وكان هذا عقابهم في الدنيا ، (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ) . أما هود ومن معه من المؤمنين ، فقد نجاهم الله من ذلك العذاب ، فلم يصبهم ما أصاب الكافرين .

لقد استكبر قوم عاد وغرَّهم قوهم ، ونسوا أن الله سبحانه هو القوي وحده ، وكذبوا بآيات الله وبرسوله ، فأذاقهم الله سبحانه العذاب في الدنيا والآخرة .

قصة ناقة صالح

كان قوم ثمود يسكنون شبه الجزيرة العربية ، في منطقة خصيبة ، تكثر فيها البساتين وعيون الماء ، وتمتاز بالخضرة والجمال ، خيرها كثير ، ورزقها وفير . وكان أهل ثمود متفوقين في فن العمارة ، بارعين في البناء ، فأقاموا القصور الفخمة في السهول والجبال ، وعاشوا في أمن ورخاء ، لكنهم لم يشكروا الله على ما أنعم به عليهم ، وإنما كفروا واستكبروا في الأرض بغير الحق ، وعبدوا مع الله آلهة أخرى ، ولم يأخذوا درساً مما حدث للأمم السابقة .

وأرسل الله تعالى إليهم صالحاً عليه السلام لينذرهم عاقبة ما هم فيه ، فقال لهم : (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) . وكلَّمهم صالح بلطف ولين ، وبين لهم أنه إنما يدعوهم إلى طاعة الإله الحق ، وأنه مستمر في دعوته ، فقال : (يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ) .

فآمن بصالح بعض الناس من الفقراء ، وخاف الأغنياء ، فراحوا يبعدون الناس عن صالح وعن دعوته ، فكانوا يقولون لهم : (أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ) ، فيجيبهم من آمن : (إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ) ، فيقولون لهم : (إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) .

وظل نبي الله صالح يقول لهم : (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ، وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) .

لكنهم لم يصدقوا ، بل عاندوا وابتعدوا عن طريق الحق والصلاح واتهموا نبي الله صالحاً بالكذب ، وقالوا : (أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ، أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ) . واتهموه بالسحر ، فقالوا : (إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) .

فصبر صالح على هذا الأذى ، واستمر في نصحهم ودعوتهم قائلاً : (يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ) . ثم سألوه أن يأتيهم بمعجزة تشهد له على صدق ما يقول ، وتدل على أنه نبي ، فقالوا : (مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) ، فدعا صالح ربه أن يجيب القوم إلى طلبهم ، واستجاب الله دعاءه ، وأرسل المعجزة التي طلبوها ؛ فقد فوجئ القوم بناقة ضخمة ، لم يروا مثلها من قبل تخرج من صخور الجبل ؛ فخافوا وانقسموا على أنفسهم ؛ فمنهم من صدَّق وآمن ، ومنهم من كذَّب وكفر . فقال لهم صالح : (يَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) .

ثم أخبرهم بأن الناقة ستقاسمهم الماء الذي في أرضهم ، فلها يوم تشرب فيه ، ولهم يوم . وكان هذا الأمر بوحي من الله ، وأكد عليهم ضرورة احترام ذلك الشرط حتى لا يتعرضوا لعقاب الله وعذابه إن هم خالفوا ما يأمرهم به ، كما حذرهم من أن يتعرضوا لها بسوء ، فقال لهم : (هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ) .

وعاش الناس زمناً ، يتركون الماء للناقة يوماً ، مقابل ما ينتفعون من لبنها الكثير ، وفي اليوم التالي ، يشربون من الماء . ورغم تلك المعجزة ظل كثير من قوم صالح على عنادهم وكفرهم واستكبارهم ، فتجمعوا في قصر واحد منهم ، وأعلنوا رفضهم لوجود الناقة ؛ لأن وجودها قد جعل كثيراً من الناس يؤمنون بصالح ، ففكر الحاضرون ، واتفقوا على ضرورة الخلاص من الناقة ، ومن نبي الله صالح .

واختاروا تسعة رجال من كفار المدينة ، لينفذوا تلك المهمة ، فتجمع أولئك التسعة واختاروا من بينهم أشدهم كفراً وضلالة ، وأجرأهم على القتل وسفك الدماء ؛ لينفذ الأمر ، وزيَّن لهم الشيطان ذلك ، فقتلوا الناقة . وبذلك خالف قوم ثمود أمر ربهم ، وتحدوا الله سبحانه ونبيه . فقال لهم صالح : (تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) .

فلم يهتم أولئك الكافرون ، وراحوا يدبرون لقتل صالح نفسه . وأوحى الله إلى نبيه أن يخرج بأهله والذين آمنوا معه ، تاركين أولئك المعذَّبين وراءهم . فخرج صالح وهو حزين على أولئك الذين

زيَّن لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن سبيل الحق ؛ فقال لهم صالح : (يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ) .

وحانت لحظة العذاب الأليم . وفي صباح اليوم الموعود ، أرسل الله عليهم صيحة شديدة من السماء ، ورجفة شديدة من أسفلهم ؛ فأصبحوا في ديارهم جثثاً هامدة لا أرواح فيها ولا حركة ، قال تعالى : (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ، وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ، كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ) .

قصة إبراهيم وقومه

ولد إبراهيم عليه السلام في بابل بالعراق ، وكان الناس في ذلك الزمان يعبدون الكواكب والأصنام ، ولكن الله سبحانه عصم نبيه إبراهيم من ذلك ؛ فعلم منذ صغره أن هذه الأصنام والتماثيل حجارة وأخشاب لا تنفع ولا تضر وأن العبادة لا تكون إلا لله خالق السماوات والأرض .

وكان آزر والد إبراهيم يصنع هذه التماثيل والأصنام ، ويعبدها مثلما يفعل قومه فبعث الله إبراهيم إلى قومه ، ليدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وينهاهم عما هم فيه من الكفر والضلال ، فتوجه إبراهيم إلى أبيه وخاطبه بالقول اللين والأدب الجميل ، ودعاه بالحسنى إلى عبادة الله وحده ، وقال له : (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ، يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ، يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً ، يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً) . فم يقبل آزر كلام إبراهيم ، بل هدده وتوعده وأمره أن يهجره ويبتعد عنه قائلاً له : (أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً) ، فقابل إبراهيم تهديد والده بصدر رحب ونفس مطمئنة ، وقال له : (سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً) ، وترك إبراهيم أباه ، وانصرف وهو حزين لتمسك أبيه بالكفر وعدم إيمانه بالله .

وأراد إبراهيم أن يبين لقومه فساد الآلهة التي يعبدونها ، وأن يقنعهم بالعقل والحجة ، فذهب إلى الذين يعبدون الكواكب ، وانتظر حتى دخل الليل ، وظهر كوكب منير في السماء ، فأجابهم إلى قولهم ، وقال : (هَذَا رَبِّي) ، ثم انتظر حتى غاب هذا الكوكب وأَفَلَ وأظلم ، فأعلن لقومه أنه لا

يصلح أن يكون إلهاً ، وقال لهم : (لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ) . وانتظر حتى طلع القمر وامتلأت السماء بضيائه ونوره ، فقال لقومه : (هَذَا رَبِّي) ، فلما غاب القمر ، واختفى نوره تَبَرَّأَ منه ، وقال لقومه : إنه ليس إلهاً . فلما طلعت الشمس مشرقة مضيئة ، وأرسلت الدفء والنور في كل مكان ، قال إبراهيم : (هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ) ، ولما غربت الشمس ، ووضح للناس أن هذه الكائنات كلها لا تصلح أن تكون إلهاً ، قال لقومه : (يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

لكنهم لم يستجيبوا لدعوته ، بل ظلوا يجادلونه ، ويهددونه بأن آلهتهم ستصيبه بالأذى أو السوء ، فلم يستمع لكلامهم ، وتعجب منهم لأنهم يخافون من أشياء لا تضر ولا تنفع ، ولا يخافون من الله سبحانه .

قصة إبراهيم والأصنام

بيَّنَ إبراهيم لقومه أن عبادة الكواكب والنجوم ضلال وشرك ، ونصحهم بعدم عبادة الأصنام التي يصنعونها من الصخور والأخشاب ، وسألهم : (مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) ؟ فأخبروه أنها من صنع آبائهم وأجدادهم ، فقال لهم : (لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

وسألهم إبراهيم : (هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ) ؟ وأكد لهم أنها لا تنفع ولا تضر ، فكيف يعبدونها ، والعبادة لا تكون إلا لله وحده : (بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) . وأقسم إبراهيم أنه سيحطم هذه الأصنام وانتظر حتى جاء يوم عيدهم الذي يحتفلون به خارج البلدة ، فذهب إلى أصنامهم ، فوجد قومه قد وضعوا أمامها الطعام والشراب ، فقال مستهزئاً : (أَلا تَأْكُلُونَ ، مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ) ؟!

ثم رفع إبراهيم الفأس التي في يده ، وكسر الأصنام عدا صنم كبير وضع عليه الفأس ؛ ليقول إذا سأله قومه : اسألوا كبيرهم ، فيعترفوا بأنها حجارة لا تتكلم ، وتُقَامُ عليهم الحجة .

ولما رجع القوم من عيدهم ، ودخلوا على أصنامهم وجدوها قد تكسرت ، فقالوا في دهشة : (مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) ، وتذكر القوم إبراهيم ، فقال بعضهم : (سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) ، فأمروا بإحضاره .

حضر إبراهيم ، واجتمع عدد كبير من الناس ليسمعوا كلامه ويحاكموه ويعاقبوه . فقالوا له : (أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ) ؟ قال إبراهيم : (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) ، فاحتار القوم وقالوا : (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ) ، وهكذا اعترفوا بأنها حجارة لا تنطق ولا تتكلم .

وهنا تعجب إبراهيم من قومه ، وقال لهم : (أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ ، أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ) ، وسكت القوم ولم يستطيعوا ردًّا ، ولكن الكبر أعماهم ، فلم يؤمنوا بالله ، ورأوا أن يتخلصوا من إبراهيم ، فقرروا أن يحرقوه ، فقالوا : (حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) ، فجمعوا حطباً كثيراً ووضعوه في مكان واسع ، وأشعلوا ناراً عظيمة ، ثم أمسكوا إبراهيم وألقوه في النار . وهو يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل . فأمر الله سبحانه النار ألا تحرق إبراهيم وألا تؤذيه ، وأن تكون عليه برداً وسلاماً : (يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ) . ولم تحرق النار سوى الحبل الذي كان قيداً لإبراهيم . وبقي إبراهيم مدة في النار وهو في حفظ الله ورعايته، وخرج منها سليماً معافىً لم يصبه أذى أو سوء ، والناس في دهشة وحيرة ، ولسانهم يقول عن تلك المعجزة : نعم الرب ربك يا إبراهيم .

قصة إبراهيم والنمرود

سمع النمرود ملك بابل بدعوة إبراهيم عليه السلام وقصة نجاته من النار ، وكان النمرود حاكماً ظالماً ، يعيش في نعمة عظيمة ، ويخضع له الناس ، ويطيعون أوامره ، ومع ذلك فقد أنكر عبادة الله وحده لا شريك له ، وازداد كفراً وجهلاً وضلالاً ، فادَّعى أنه رب وإله .

واستدعى النمرود إبراهيم عليه السلام ليسأله عن الله سبحانه ، فقال إبراهيم : (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) .

فأخذت النمرود العزة بالإثم فجادل بالباطل ، وقال في كبر وجهل : (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) ؛ أستطيع أن أُحْضِرَ سجينيْن أو رجلين فآمر بقتل أحدهما وأعفو عن الآخر .

أحس إبراهيم بجهل النمرود وحماقته ، فقدم له في الحال برهاناً قويًّا يدل على قدرة الله وعظمته ، وأنه لا يشاركه فيها أحد ، قال إبراهيم : (فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ

الْمَغْرِبِ) ، فسكت النمرود ، وأمسك عن الكلام ، وظهر كذبه وعجزه ، فتركه إبراهيم غارقاً في حيرة وذهول . (فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

قصة إبراهيم والطير

تمنى إبراهيم أن يرى كيف يُحْيِي الله الموتى ، فتضرع إلى ربه قائلاً : (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) . فسأله الله – وهو أعلم بما في قلب إبراهيم ونفسه - : (أَوَلَمْ تُؤْمِنْ) ؟ فسارع إبراهيم وبيَّن العلة من سؤاله ، وهي رغبته في اطمئنان قلبه بمشاهدته بعث الموتى ، فقال : (بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) .

واستجاب الله لرغبة إبراهيم ، وأمره أن يأخذ أربعة طيور ، ثم يذبحها ويقسمها أجزاء ، ويضع على كل جبل جزءاً منها ، قال تعالى : (فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

أسرع إبراهيم بإحضار الطيور ، ثم ذبحهن وقطعهن قطعاً صغيرة ، وخلط اللحم بالريش ، وجعل على كل جبل منهن جزءاً . ثم نادى إبراهيم الطير ، فإذا بكل جزء يتحرك من مكانه ، وينضم إلى نظيره من أجزاء الطير الواحد ، ولم تلبث أجزاء كل طائر أن اجتمعت ، ثم عادت إليها الحياة من جديد ، وتوجهت الطيور مسرعة إلى إبراهيم مستجيبة له . وهنا غمرت السكينة قلب إبراهيم ، وعم الخضوع جوارحه ، وحنى وجهه للحي القيوم ، فكأنه يقول : حدث هذا لما دعوتهن ، فكيف لو كان الداعي هو الله العزيز الحكيم .

قصة إبراهيم وهاجر

ترك إبراهيم بلده ، وخرج هو وزوجته سارة وابن أخيه لوط إلى أرض الشام ، وكان إبراهيم في طريقه وسفره ينشر دعوته ، ويدعو الناس إلى عبادة الله وحده . ثم دخل مصر ، وأعطى ملك مصر لسارة جارية مصرية اسمها هاجر لتخدمها ، وكان إبراهيم قد صار شيخاً كبيراً ، وليس له أولاد من زوجته سارة ؛ لأنها لم تكن تنجب .. رغبت سارة في أن يتزوج إبراهيم من هاجر لعل الله يرزقه ولداً . فكلمته في ذلك ، وبالفعل تزوج إبراهيم هاجر ، فأنجبت له إسماعيل .

وأمر الله سبحانه إبراهيم أن يهاجر بابنه إسماعيل وزوجته هاجر إلى مكان آخر ، فأخذ إبراهيم زوجته هاجر وابنه الرضيع إسماعيل ، وظل يسير في صحراء الجزيرة العربية حتى وصل إلى مكة ، وكانت حينئذٍ صحراء موحشة لا أنيس فيها ولا جليس ولا زرع فيها ولا ماء .

ولما وصل إبراهيم إلى ذلك المكان ، ترك هاجر وإسماعيل وانصرف ، فقالت له هاجر : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي ؟! فلم يَرُدَّ إبراهيم ، ففهمت هاجر أن ذلك أمر من الله ، فقالت له : هل أمرك الله بذلك ؟ فقال إبراهيم : نعم . فقالت هاجر بكل إيمان ويقين : إذن فلن يضيعنا الله .

ثم سار إبراهيم حتى اختفى عن الأبصار ، فرفع يديه إلى السماء يدعو ربه أن يحفظ زوجته هاجر وابنه إسماعيل ، وقال : (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) .

وظلت هاجر في هذا المكان هي وابنها إسماعيل . وبعد فترة ، انتهى ما معها من طعام وشراب ، فأخذ الطفل الرضيع يبكي ويصرخ من الجوع والألم ، وأمه تبحث عن ماء ، وتصعد فوق جبلَي الصفا والمروة لتنظر هل من مغيث ، فلا تجد .

وظلت هاجر تفعل ذلك وتكرره وتنظر ؛ لعلها تجد أناساً يغيثونها ، ولكن دون جدوى ، حتى فعلت ذلك سبع مرات .

وبينما هي في حَيْرة وتعب وخوف على نفسها وابنها من الهلاك ، جاء فرج الله ورحمته ، فنبع بئر زمزم عند قدم طفلها إسماعيل ، فراحت الأم تغرف الماء بيدها ، وتشرب هي وطفلها ، وتشكر الله سبحانه .

وجاءت القوافل فوجدت الماء في هذه المنطقة ، فاستقرت بها ، وعاشت هاجر هي وابنها إسماعيل مع قبيلة جُرْهُم العربية ، وكان نبي الله إبراهيم يزورهما من حين لآخر ليطمئن عليهما .

قصة كبش إسماعيل

أحبَّ إبراهيم ابنه إسماعيل حبًّا شديداً ، وأحسن تربيته حتى كبر وبلغ السن التي يستطيع فيها أن يساعد أباه في العمل ، ويتعاون معه في طلب الرزق .

وأراد الله أن يختبر خليله إبراهيم ، فأوحى إليه في المنام أن يذبح ابنه .

واستيقظ إبراهيم من نومه حزيناً مهموماً ، لا يكاد يصدق ما رأى ؛ كيف ستطاوعه نفسه أن يفعل ذلك ، لكنه أمر الله الذي لا مفر منه ولا رادَّ له . إنه أمر شاقٌّ على نفس الأب ، وبالرغم من صعوبته تقبله إبراهيم بنفس راضية وقلب مطمئن لإيمانه القوي بربه ورغبته في رضا الله وطاعته .

وفكر إبرهيم .. ماذا سيفعل ؟ وكيف يخبر إسماعيل بهذا ؟ أيعرض عليه الأمر ويستشيره في الرؤيا ، أم يذبحه من غير مشورة ؟ وظل إبراهيم في حيرة إلى أن هداه الله للرأي الصواب ، فاستدعى ابنه إسماعيل ، وقال له بصوت حنون ممتلئ بالحب والرحمة : (يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى) .

لم يهرب إسماعيل ، أو يرفض ذلك الأمر ، و لم يبك خوفاً وجبناً ؛ لأن أباه أحسن تربيته ، فقال لأبيه دون تردد : (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) .

فأخذ إبراهيم ولده إسماعيل ، وذهب به بعيداً إلى الصحراء ، وهناك .. جعل وجهه إلى الأرض حتى لا يراه فتأخذه الرأفة به أثناء الذبح ، فلا ينفذ أمر الله .

انتهز الشيطان تلك الفرصة ظنًّا منه أنه قد يؤثر على عاطفة الأبوة عند إبراهيم ، فأسرع يوسوس إليه : يا إبراهيم ، كيف تذبح ابنك وحيدك بيدك ؟! ألا يوجد في قلبك رحمة وشفقة ؟ اتركه يا إبراهيم .. لا تفعل . لكن إبراهيم لم يستمع لوسوسته . ثم هوى بالسكين إلى رقبة ابنه ليذبحه ، فإذا به يسمع صوتاً ينادي : (يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) ، فنظر فإذا جبريل عليه السلام قد جاء ومعه كبش سمين ، قال تعالى : (وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) . فأخذ إبراهيم الكبش ، فذبحه فداءً لابنه إسماعيل ، ونجح الوالد والابن في الاختبار الصعب .

وهكذا نجد في هذه القصة أروع الأمثلة على صدق الإيمان بالله ولزوم طاعته ، والتضحية من أجله بأغلى ما تمتلكه النفس . فالله سبحانه قد يختبر عباده الصالحين بأمور شاقة ، فإن صبروا ورضوا كان لهم الجزاء الكبير عند الله في جنة عرضها السماوات والأرض .

قصة بناء الكعبة

أمر الله سبحانه نبيه إبراهيم أن يبني له بيتاً ، ليطوف الناس حوله ويزوروه ، وأرشده إلى مكانه ، فاستجاب إبراهيم لأمر الله ، وسارع هو وابنه إسماعيل إلى بناء بيت الله .

كان إبراهيم يبني البيت ، وإسماعيل يساعده ، ويناوله الأحجار وما يحتاج إليه في البناء ، حتى أتمَّا بناء الكعبة .

ولما اكتمل البنيان توجها إلى الله سبحانه بالدعاء ، حتى يتقبل عملهما ، فقالا : (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

وبعد أن انتهى إبراهيم من بناء البيت الحرام نظَّفه وطهَّره ، ثم نادى في الناس أن يأتوا ويحجوا بيت الله سبحانه ، فاستجاب الناس لندائه ، وجاءوا من كل مكان يلبُّون ويطوفون بالكعبة .

قال الله تعالى : (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ، وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) .

قصة ضيف إبراهيم

جاءت مجموعة من الملائكة إلى نبي الله إبراهيم في صورة رجال ، فظن إبراهيم أنهم بشر ، وأنهم غرباء قد نزلوا ضيوفاً عليه ، فأسرع وذبح عجلاً سميناً ثم شواه وقدَّمه إليهم ، ودعاهم إلى الأكل ، فلم يقتربوا من الطعام .

ولما رأى إبراهيم أنهم لا يأكلون خاف منهم ؛ فأخبروه أنهم ملائكة جاءوا إلى قوم لوط ليعذبوهم عذاباً شديداً ، ثم بَشَّرُوا إبراهيم بأن زوجته سارة سوف تلد غلاماً عليماً هو إسحاق ، وسوف يكون له حفيد منه هو يعقوب .

سمعت سارة ذلك فتعجبتْ من الأمر واندهشتْ ؛ لأنها عقيم لا تلد ، وهي امرأة عجوز وزوجها كبير في السن ، ثم أقبلتْ سارة على الملائكة قائلة : (يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) ، فردت عليها الملائكة : (أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) .

وتركت الكلائكة إبراهيم ، وتوجَّهوا إلى قوم لوط لكي ينفِّذوا فيهم حكم الله ، فأذاقوهم العذاب المهين ؛ لأنهم أشركوا بالله ، وارتكبو الفواحش والآثام .

قصة لوط

كان قوم لوط يكفرون بالله سبحانه ، وكانوا يقطعون طريق النـــاس ، ويفعلـــون المعاصـــي والذنوب والفواحش ، بل إنهم فعلوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم ، فقد كانوا يتركـــون زوجاتهم من النساء ، ويأتون الرجال . فأمر الله سبحانه لوطاً أن يذهب إليهم ، ويـــدعوهم إلى الله . فودَّع لوط عمه إبراهيم عليه السلام ، وتركه ورحل إلى مدينة سدوم .

وحذرهم لوط من تلك الأفعال المنكرة والذنوب العظيمة ، ودعاهم إلى عبادة الله ، فقال لهم : (أَلا تَتَّقُونَ ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّـــا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) . وبيَّن لهم فساد ما هم فيه ، فقال لهم : (أَتَأْتُونَ الـــذُّكْرَانَ مِـــنَ الْعَـــالَمِينَ ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) ، لكنهم لم يستجيبوا له ، واستمروا في ضلالهم ، وأرادوا أن يُخرجوا لوطاً من القرية ، بل إنهم تمادوا في ضلالهم ، فاستعجلوا العـــذاب ، وقالوا للوط : (ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .

عندئذ ، توجه لوط إلى ربه ، وسأله أن ينصره على القوم المفسدين ، فاســـتجاب الله لـــه ، وأرسل إليه ملائكة شداداً ليعذبوا هؤلاء الكافرين . وفي الطريق إلى سدوم ، مرت الملائكـــة علـــى إبراهيم ، وأخبروه بما سيحدث لقوم لوط ، فقالوا له : (إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ، لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ) . ووصلت الملائكة إلى قرية ســـدوم ، وكـــانوا في صورة شباب ، شكلهم جميل ، وهيئتهم نظيفة ، وكان لوط لا يعرفهم ، فحزن خوفاً علـــيهم مـــن قومه . وعلم قوم لوط بقدوم هؤلاء الشبان ، فاجتمعوا يريدون أن يفعلوا بهم الفاحشة ، فقال لهـــم لوط : (اتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ) . لكنهم لم يستمعوا لكلامـــه ، وأصروا على طلبهم ؛ فحزن لوط حزناً شديداً ، وتمنَّى لو كانت له عشيرة وأهـــل ينصرونه عليهم ، فقال : (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَـــى رُكْنٍ شَدِيدٍ) .

وهنا أخبره الشباب بأنهم ملائكة ، وقالوا له : (يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَـــصِلُوا إِلَيْـــكَ) . وتجمع قوم سدوم أمام البيت ، فخرجت الملائكة وضربوا بأجنحتهم على أعين القوم ، فـــأعمى الله أعينهم . وأمرت الملائكة لوطاً أن يغادر هو وأهله القرية قبل أن يحل العذاب الذي موعـــده طلـــوع الصبح . فخرج لوط وابنتاه من القرية مسرعين . ومع طلوع الفجر نزل أمر الله بتعذيب هؤلاء القوم ، فاقتلعت الملائكة قريتهم من الأرض ، وحملتها إلى السماء ثم قلبتها عليهم ، فكان عاليها ســـافلها ،

وأنزل الله عليهم حجارة متتابعة شديدة ، فأهلكتهم جميعاً . ونجَّى الله سبحانه لوطاً وابنتيه مما أصاب هؤلاء الظالمين .